

## عروسة النيل

## الفصل السادس والثلاثون

بكرت كاترينا في النهوض من النوم كهادتها ونزلت الى البستان فابصرت فيليس آتياً الى بيت روفينس فاستوقفته وتوسلت اليه ان يكتفم ما رأى في الليلة السابقة لئلا يدري به ذوها فوعدها خيراً ثم انبأها بوفاة نفورس زوجة المقوقس وقال انها ماتت غمّاً وحزناً. فجزعت وبكت حتى سالت دموعها على خديها وتذكرت احسان التوفاة اليها وحبها لها واحتفاءها بها واهتمامها بشؤونها فاخذ الطيب يعزيها بما حضره من الكلام الرقيق وقبل ان فارقتها اوجباها بوجوب حرق ثيابها وثياب دورا قائلاً ان جرائم الوباء تعلق بجميع ما يلامسها ولا سيما النسيج فاذا من مصاب به ثياب شخص سليم لوثها فانتقلت العدوى اليه وانتشرت فقلقت كاترينا واخبرته بانهما حرقتا جميع ما كان عليهما من الثياب في موقد الخمام

ولما انصرف الطيب اخذت تحظر في البستان على غير هدى مفكرة في ما آلت اليه الحال وحاولت التماس من هذه الافكار فلم تفلح وتمثلت لها المصاب سلسلة بدت اول حلقاتها لعينها ولا تعلم اين تنتهي وخيل لها ان في الجوّ عاصفة منتفضة على المدينة فتذيق من فيها العذاب الاليم ووراء العاصفة سحابة قائمة السواد هي الوباء. ولم يخف عليها ما كانت لها من اليد في جرّ ذلك الخراب الشوم وتلك التوازل المنجعة لكنّ عليها بعظم الشر الذي جلبته لم يدفعها الى النوم بل هاج حقدتها واثار كامن غيظها فاحست بقوة شيطانية فيها تحاول اهلاك بمفضيها ومحق مناظرها فقالت في نفسها كآني أرى اوربون يقاد الى القتل لكنه قد يموت قبل ان اطلعه على من دبر المكيدة له فاخذ بشاري فاذا نجما من الموت عاش فقيراً اذ لا يصدق ان العرب يردون اليه ما غنموا من اموالهم وفي ذلك ما فيه من العار والتذل فيعلم ذلك الفتى الخائن ان من البنات من لا تصبر على الضيم ولا تطيق الاذى واما باولين ودورا فاتي حفرت الحفرة لا اوربون لا يعسر عليها ان تلقيها في التهلكة

وكان رسم الجومسي ومانداني الفارسية جالسين تحت جميزة كبيرة في بستان روفينس وفي يد رسم وشيعة من الصوف تلف مانداني خيوطها على كرة فراها الطيب كذلك فراقه منظرها وابتقت اسرته وحمد ربه على شفاء الفتاة من جراحها ولبت يتأملها ساعة وقد بدت سمات العقل والادراك في عينيها ووجهها ثم دنا منها وحيها وقال كيف انما فقال رسم مثانا في الصحة مثل السمك في الماء فقال فيليس اياك والوقوع في الحبال والاشراك فقد يدعوك

هاشم اليه في ساعة لا تعرفها ثم اذار ظهره ومشى الى البيت وهو يقول في نفسه ليس في هذا العالم ما يشرح صدري اليوم سوى هذين وماري. ولما دخل ابصر هيلانة تهيئ المائدة للفطور فتضع العنب والتين والزمان في الصحف امام مجالس الآكلين والدموع تسيل على خديها فعلم انها تبكي اباهما فتذكر رسالة روفنس اليه وما كتبه عن ابنته فوقف يتأمل حركاتها فاعجبت لياقتها وحسن ذوقها واكبر جمال شعرها الذهبي وقد تدل على كتنفها كأنه جبال من النور فقال ليس في ايتنا ما هو ابدع من هذا وحينئذ تحوكت هيلانة عن مكانها فرأته واقفا يتأملها فبدا الاضطراب والدهشة في وجهها فحينئذ باسمته فاجاب التية باحسن منها وقال هانذا قد جئت فقالت الحمد لله فامي في حاجة اليك

فقال اتيتكم اس باخبار السود وارانى بشير الشوم اليوم فقالت أفأنت تأتي باخبار السود قالت ذلك واتسمت ابتسامه الرب ففكر فيليس وقال في نفسه انها طاهرة القلب سائمة النية كريمة الاخلاق بارعة الجمال ولا غرو فهي ابنة ابويها ثم طفق يمدحها بموت قوروس زوجة المقوقس وما اتفق لها من اسباب الغم قبل وفاتها فتأثرت هيلانة علما منها بما سيكون لهذا النبأ من سوء الوقع في نفسي باولين وماري ولم يخفف على الطبيب علة حزنها فانها لم تكن تعرف المتوفاة فزاده ذلك احتراماً لها وعزم من تلك الساعة على مفاتحة امها بشأن رسالة ابوها اليه ولحظت هيلانة مسكوتة فراعها واوجست خيفة لئلا يكون لديو نبأ آخر مشوم فكن روعيا وقال لا تستلي للباس فلا بد من وقوع المصايب ومساويفك المستقبل بايام الصفاء والرغد فانت لا تزالين في من الصبوة الاثنتين بي فاجابت بالايجاب ولما قالت ذلك طلع عليهن اهل البيت فانباهن بوفاة نفورس فشبهت ماري والقت نفسها على باولين فاحتضنتها هذه واصفرت لكن رزانتها عاودتها فلزمت الكوت وهي تسمع تفاصيل الخبر فلما رأى الطبيب منها ذلك التعقل اكبره وعاوده اضطرابه فلم يكذبته حديثه حتى استأذن في الانصراف وخرج فرسمه ومانداني فقال رسم ارى الطبيب كثيراً اليوم وعهدي به طلق الحياء فقالت مانداني صدقت فلأمر ما تبدل وكانا يتكلمان بالفارسية

فقال رسمه أصحيح انك تستائين اذا دعاني هاشم اليه

فقالت نعم فاذا فارقتني يا رسمه تكبر صفو عيشي

فقال وما يحزنك

فقالت لقد كنت لي صديقاً صدوقاً وانت فارسي مثلي بلادك بلادى ولنتك لغتي وانت

لول من خاطيني بالفارسية بعد موت امي

فقال أفذا علة حزنك الوحيدة

فقلت كلاً فانك اذا ذهبت اليوم فلن تعود

فقال فانت ترغيبين في بقائي معك

فقلت اثرتاب في ذلك وقد فرحت بلقائك فرحاً عظيماً ولما قالت هذا صبغ الحياه وجهها

فحوت نظرها عنه

فقال فعلام تفتوق اذا

فقلت قد يكون ميدك في حاجة اليك فيدعوك ولا يعنا ان نبقى عالة على غيرنا اما

وقد اعتقوني نسا بحت عن عمل اتعيش منه ومن كان في قوتك وسنك فلا يجب ان يستلم

الى الكسل

فقال اكوه الامور الي الكسل فاعمل واكسب من المال ما يكفي ثلاثة وقد عقدت

النية على العودة الى وطني فاشترى ارضاً واعنى بتربية المواشي وعندى من المال ما يكفي ذلك

اترفين القراءة فقلت لا فقال انا اجهل منك بها فاعلمي اذا ان في منطقتي صكاً يحظ بيدي

وتوقيعه فيه انه مديون لي باحد عشر الف درهم وثلاث مئة وستين درهماً فما قولك الا

استطيع ابتياع ارضاً بهذا القدر من المال

فقلت نعم لاسيا في بلاد فارس

فقال اعلمي انني فارقت بلادى منذ تسع سنوات وانا الان في التاسعة والعشرين وفي

قلبي حنين الى وطني وارى زمان العودة اليه قد حان فاذا رضيت اخذتك معي فكنت زوجتي

وقضينا الحياة في حنا ومرار قال ذلك وقبض على يدها فاضطربت وقالت اني اسيرة فضلك

وعريفة معروفك لكنني لا استطيع ان اكون زوجتك . فقال مقضياً وما علة رفضك فقد مر

لي زمن وانا اعلى النفس بهذه الامنية فالقت يدها على ذراعها وقالت بلطف

ما اسرع غيظك ان فراقك يؤلمني وبني من الحب اضعاف ما بك ولطالما غنيت ان

اعود الى بلادى معك كزوجتك وكأنتك نسيت من انا فماذا يكون من امرك اذا عدت الى

قومك واهلك وزوجتك جارية معتقة

فقال أهذه علة ابائك وضاب عنك اني مجوسي وان الناس في عين المجوسي اكفاء فاعلمي

انه سيأتي زمان تسخ فيه نواميس هذا العالم الفاسدة فلا يبقى البشر سيداً وعبداً بل اخوة

لا ميزة للواحد على الآخر وتصير الارض فردوساً والحياة نعيماً تنبطل الحروب والخصومات

وينتهي الشقاء ولا اخالك تجيدين ان رباط الزواج محترم ومقدس عندنا ولو لم يكن لنا من

الطقوس فيه ما للتصاري فاذا رآك شعبي اعبروك اسيرة حرب لا جارية واعبروني منقاداً لك . ويشهد الله اني لولقيتك تشين تحت نير العمودية لمددت يدي الى منطقتي واخرجت فداك من المال وحملتك الى بلادي زوجة لي فاطلي عن اوماك

فكنت مانداني لكنها اشارت الى اذنيها المصلوتين فقال اراك لا تملين من الفاء العثرات في سبيلي لكن صل اذنيك لم يؤثر في سمعك ومن يستطيع تمييزها بعد ان عقصت اليدة هيلانة شعرك على هذا النمط ولعلك تذكرين نقاب النساء في فارس فانهم متى لبسها لا يستطيع الناظر اليهن ان يرى اذني المرأة فلا يدري اطربلتان هما ام قصرتان . ثم ضحك طويلاً ضحك الفائز فاخذت بي تبكي حتى اوجعته فقال ما يبكيك قولي ولا تخني عني صغيرة او كبيرة ثم فطن وقال لا تعلي فقد ادركت علة حزنك وذلك ما حدا بي الى التردد والاحجام حتى كدت اخسر راحتي واضع سماعتك فكيف تلامي علي ما جرى رغمًا عنك وانت جارية صغيرة السن لا قوة لك ولا عضد وحسبك ان رجلاً ساذجاً مثلي يرى وجه الصواب في الامر ويعلم انك بريئة من كل ذنب فاعلمي اني نبت هذا الامر وما نساءه الى الابد . فامسكت يده وقبلتها وقالت

— انت خير الناس يارستم وستباركك امي من قبرها فانا في يدك ووهن اشارتك فقد كان الامر كما قلت فاساهوا الي وانا فاة قليلة الدربة معدومة الصبر وليس لي من استند الي وارى الماضي كحل مزعج انقضى الآن

— فقال صدقت فسنعود الى بلادنا ونضع العين برؤية تلك المناظر البديعة التي نهيم بها ونذكرها في غربتنا وكما ان الام لا تطلع عن حب ابنها اذا رزقت غيره فحب الاثنين كذلك انت فقد احببت واحداً ولكن في استطاعتك ان تمنحني جزءاً كبيراً من حبك

فقات ان ما في فؤادي من الحب والاخلاص هو لك وحدك فقط فقال هذه اسعد ساعات حياتي فقد جلت تحت هذه الجميزة رجلاً فريداً وحيداً غربياً وساتوم من تحتها خطيباً لاجل فتاة في العالم وهكذا جلسا يتحدثان غير حافلين بالحر الشديد وهو يطرح عليها الاسئلة التي يسألها المحبون فكفت عن الخطابة واندفعت بكلماتها الي تصغي الى كلامه وتجيبة اجوبة الحبيب المخلص

### الفصل السابع والثلاثون

لم تقعد شدة الحر عبادة عن متابعة عمله فمضى النهار يطوف في قصر المقوس وهو يقب ما فيه من متاع ورياض لعله يثر على ما يؤيد التهمة على اوريون فادش ما رأى من

الحلى والجواهر والتحف النادرة وأكبر ما في البيت من الاثاث الكثير الفاخر وامجته روائح الطيوب الغالية في غرفتي نفوس وابنها فابقن ان هنالك من الثروة ما لم يحلم به عربي في مصر. وكان الترجمان يعرب له ما يجده من العقود والصكوك والالواح فلم يكن فيها جميعاً ما يطلبه حتى وصلا الى غرفة اوريون فتناول عبادة بعض الالواح المطروحة في ارض الغرفة ودفعها الى الترجمان فاذا في واحد منها ما يأتي

من اوريون بن المقوقس الى باولين ابنة توما سلام

انه يستحيل عليّ الآن الاشتراك في انقاذ الراهبات فلا تلوميني واعلمي ان سمو غايتك وغيرتك المحمودة على بنات جنسك المظلومات بكفيان ل ٠٠٠٠ وكانت الكلمات بمد هذه العبارة مسموعة لا تمكن قراءتها فلما وقف عبادة على مغزى الرسالة دسّ اللوح في جيبه وعزم على اتخاذ حجة على كاتبه ولم يكن يبطل ما بين الفتى وباولين من الربط وانه وصيها والقيم على اموالها فارتأى ان يلقي القبض عليها فيستنطقها لعلها تبوح ببعض السرّيات كلامها مصدقاً لتهمة البطيريك التي اتهم اوريون بها من سرقة الزمردة والسعي في انقاذ الراهبات لكنه اجلّ القيام بهذا العمل ريثما يفرغ من التنقيب في قصر المقوقس فاسرع الى الخزانة مستحسباً ان يلس وهناك امر باخراج عقود البيع والصكوك والقنود وحملها على مركبات وامر بنقلها الى النسطاط ولم يذق ذلك النهار بطوله طعاماً ولا شرباً خشية ان يفوت الوقت فلما فرغ من عمله جلس ينتظر محي مطران منف اذ نفي اليه خبر عودته من الصعيد حيث لقي البطيريك بنيامين وقصّ عليه واقعة الحال وتلقى اوامره بشأنها وعهد اليه البطيريك بمهمة سرية الى عمرو او وكيله . فلما رجع الى منف عول على لقاء عبادة فانس من نفسه ضعفاً ونعاساً فنام على نية ان يفيق بعد ساعتين لكنه ابطأ في النهوض واعتبرته حياً واصابه عطش شديد فارتفعت مديرة يتي وبعثت خادمة الى الطبيب فيليس يدعوه لقيادة سيدها فرجع الخادم وقال ان فيليس غائب عن منف وذلك ان هاشما ارسل يستدعيه الى جدّة لطبيب ابنه المريض

وفي الغد جاءت مارتينا زوجة يوستينوس الى بيت روفينس فلقيتها النساء بالترحاب وتما ابصرت باولين سحرها جمالها وخطب لها لظنها ووقارها فعطفت عليها تحديداً وكانت تعرف ابوها وقد لقيتها ايام عزها في النسططينية فاطنبت في مدحها والتناء عليهما ثم اتت على ذكر اوريون فاعربت عن ميلها اليه واحترامها له ووصفت ما لقيت من الحفاوة والاكرام في العاصمة وما اصابه من النور على جميع شبان تلك المدينة واقاضت في الكلام حتى مالت اليها باولين فانفتحت حذرهما وصارتا تكلمان كما تكالم الصديقات وجاء من يدعو باولين فنهضت وودعت

ماريتنا قائلة منلتي قريبا ان شاء الله وسامسى بنفسى اليك فانا الصغرى ومن واجباتى السعي لزيارتك ولما خرجت صاحت ماريتنا لله ما اجملها فهي ابنة ابويها ولم تقع عيناي على اجمل منها وقد زينها البارى بالاخلاق الكاملة والاصاف الباهرة ثم الفتت الى كاترينا وقالت لقد كذب من نقل الي اخبار السوء عن هذا الملاك فهي جوهره كريمة ودره شيمه ولا يخفى علي الان علة كرهك لها فاننا نبر الاشياء كما نروم ان نبرها لا كما هي ثم تهتدت وقالت في نفسها بالسوء يخط دورا فلا يسعي الا الاعتراف بميزة باولين عليها فاني لدورا ان تناظرها. وحينئذ اندفت كاترينا تدافع عن نفسها قائلة ان باولين مثالة متجربة رعمًا رعمًا فيها من الاخلاق الطيبة والمزايا الشريفة فاعترضتها هيلانة وتولت الدفاع عن صديقتها كأنها لبوءة تدافع عن ثلبها ولم تكذ تقوه ببعض كلمات حتى سمعن جلبة وضجة في الدار ودخلت عليهن مرضع باولين وهي تنوح وتلطم خديها فقالت

— وامصيتاه فقد جاء العرب وهم يريدون القبض على حبيبي باولين وزجها في السجن. فصمقت النساء لهذا الخبر وجزعن جزعا شديدا فصاحت ماريتنا

— تبا لهذا البلد امثل هذا الملاك يسجن قيد وليس بين احد من يقول كلمة ايسر قوتها حافية في الشوارع والازقة كأنها من القطة ونحن تعود لكن سابدل ما في وسعي في اساقها فاسرعي يا كاترينا ومرهم يأتوا بمركتك ولا تحملتي بمينيك كالمتمتحة فاركضي واقعلي ما قلت ثم مدت يدها الى كيس النقود وقالت الحمد لله فهذه لفة يفهما جميع الناس وسامسكهم بها ثم تولت الى الدار ودعت رئيس الخند فاسرت اليه شيئا فاوما بالقبول وامر ان يحملوا باولين في المركبة وبعدها بالاحسان الى الفتاة في سجنها واذن لمرضعها بمرافقتها اما باولين فنقلت الخبر بسكينة تامة كما دتيا ولم يبد على وجهها شيء من الاضطراب حتى اذا ما انطرحت النساء عليها يقبلنها انهمرت الدموع من عينيها فسالت الترجمان عن علة القبض عليها فقال ان المطران يتمك بالاشترار في تسهيل السبل لفرار الراهبات فدنت حينئذ من زوجة روفينس وقالت احدري كاترينا قد دمت بنا وجلبت علينا هذا الشر العظيم اما انا فلن افوه بكلمة ولو قطعوا رأسي ثم ودعتهما وبكت ابنتها هيلانة وشكرتهما على معرفتهما وفضلهما واوصتهما خيرا بباري وقالت اذا جاء ابني ليلغاه سلامي ويحب اوريون كابين له وقولا لها اني احببتهما الى آخر نسبة من حياتي فالوداع الوداع يا خير الصديقات وارادت كاترينا ان تدنو منها لتودعها فقبضت ماريتنا على ذراعها واوقفتها قائلة نفي مكانك فليس لك نصيب في هذا العمل فبين هذه القلوب الطاهرة من الروابط ما لا يجد مكانا من فؤادك. ولما طال زمان الوداع امر الرئيس بالاسراع والمسير

فتعلقت ماري ياولين واصررت على مرافقتها الى سجنها وهي تبكي من كبر مقروحة فدفعتها ياولين  
يرفق بعد ان قبلتها مراراً ثم ركبت المركبة فتبعها كاترينا وقالت اليس عندك ما نقولين لي  
فقالت شكراً لك على ما فعلت من اعارتي المركبة التي تحملني الى السجن ذلك السجن الذي  
ازج فيه بفضل خيانتك فاذا كنت بريئة مما اتهمتك به فاغثري لي والآن فقصاصك  
اشد من عذابي

### الفصل الثامن والثلاثون

ولما رجعت كاترينا الى بيتها انبأت امها بما اصاب ياولين فشق الخبر عليها وبكت حزناً  
وعثماً فقالت لابنتها يجب علينا ان نهتم في تخفيف بعض عذابها واسعافها في سجنها وما بذلك  
جهدي في اعانتها على احتمال مصيبتها بالصبر وسارسل اليها الطعام من بيتنا فان طعام السجن  
لا يؤكل. ثم اخذت تندب سوء حظ تلك الفتاة وتدعو لها بالخلاص العاجل من السجن والاسر  
اما كاترينا فكانت كمن يتقلب على الجمر فلم تذوق طعم الراحة بعد الذي شهدته ونالها من تشريع  
ضميرها عذاب شديد فطقت تدور في البيت كالخائفة وهي لا تهدي الى ما تفعل الى ان مضى  
اكثر الليل وحاولت النوم فلم تستطع لان الارق والاضطراب نازلاها فاقفقا بالها وحرامها  
الراحة فخرجت عند الفجر الى الشرفة وجلست على كرسي فيها واطلّت على النهر امامها تتأمل الفن  
والمراكب الكثيرة واطلقت الافكارها العنان وفيها هي كذلك رأت جنازة تبعها عدد كبير من  
الخلق ثم تلاها اخرى فاستولى الرعب عليها واستحوذ عليها القلق فاطرقت خوفاً وخشية وخيل  
لها ان احدى الجنائزين لها ورأت امها ميتة وقد خلنتها فريدة وحيدة لا انيس لها ولا صديق  
كأنها شجرة اقلعت جذورها او ورقة مطروحة على سطح اليمّ وحينئذ خطر بالها ما تلقته في  
المدرسة وما سمعت في الكنيسة عن عقاب الاشرار وقاعلي الاثم وقنلت لها جهنم مأوى الخطاة  
وبحيرة النار المحرقة حيث يطرح القتلة والمراطفة وشهود الزور تخفق قلبها جزعاً وتمت لو يتلها  
الارض فخلص من شقائها ثم رفعت رأسها وصاحت كمن اصابه سهم اذ رأت جهنم فاغرة فاها  
والنار تنبعث منها فتصاعد السنتها في الجو حتى يفض بها وابصرت الدخان يلتف غيوماً تدور  
في الهواء وتنتشر في الفضاء وكأن اللهب يعمل على ابتلاع المدينة والنهر وما حولها وسمعت  
اجراس انكناس تترع ورأت الوف السكان يتجمهرون في الشوارع وقد علت جلبتهم واختلطت  
اصواتهم يمازجها فقعة الاسلحة حتى يخال السامع ان الارض زلزلت زلزالها فارادت ان تقف  
على جلية الخبر فاطلت على الشارع وانصت فلم تسمع سوى كلمات مقطعة من مثل قصر الوالي —  
العرب — المقونس — اوربون — النار — اطنوها — انقذوا البيت وحينئذ تادها البستاني

من اسفل وقال لقد احترق القصر فلينقذ الله المدينة فتحاذلت ركبتها ومدت يديا تطالب  
ما تستند اليه وللحال طوقتها ذراعان والتنتت وابصرت امها وقد استندتها الى صدرها

### الفصل التاسع والثلاثون

تداعت اركان قصر المقوقس فاصبح بمد العز والرفعة انقاصاً ورماداً ولم يبق من بيت زعيم  
المصريين سوى طللٍ بالٍ ليس ثوب الخداد على اهلهم الغابرين واشتمل رداء الحزن على ما حل  
بهم من المصائب والاهوال واندلج لسان اللهب فامتد الى الجزء الشمالي من المدينة والتهم  
ساكني القراء المجاورة للصحراء نبات مئآت منهم بدون مأوى لكن عبادة ورجاله لم يألوا جهداً  
في اخماد النار فانقذوا ما بقي من سفن واعانتهم المصريون من اهلها وكلمهم لعجب ببسالة العرب  
وحسن تدبيرهم وشدة بأسهم فانهم كانوا ينازلون النار بقلوب لانهاب الموت ولا تحسب له حساباً  
وتم لعبادة ما تتناه فانه احرق القصر بعد ان نقل الى الفسطاط ما نقل من المال والتحف  
والمعقود والصكوك . وفي ذلك اليوم عينه وصلت قافلة الى المحطة الاخيرة بين البحر الاحمر وحسن  
بابل وكان في القافلة اوريون ابن المقوقس وقد احاطت به كوكبة من الفرسان تولت اسره  
وحراسته وانت يد الى الفسطاط ليحاكم على ما اتهم به وكان يرفقتهم يوستينوس وابن اخيه  
الضابط الاسير . ورأى اوريون اللهب يتصاعد من جبهة منف وقد احمر الانق فصار بلون  
الدم فلم يحظر بياله انه يسه وقصر اجدادهم فلما بانوا المحطة ترجل ونفل زفيقاه فعله واقتدى  
بهم الجند وعرجوا جميعاً على الخان

وتحير الخبر ان يوستينوس واوريون تبعاً عمراً حتى ادركاه فرعاه اليه امر الضابط  
الاسير فرعدها خيراً وطيب خاطر يوستينوس واعطاه وصاة الى رئيس العمال حيث كان  
ابن اخيه يقاسي العذاب ويكرع مرارة الاسر فأسرع الاثنان الى شاطئ البحر الاحمر فالتفيا  
الاسير في غمرات المنون وقد انهكوا الاعياء والمرض فنقلاه من مكانه واقاما على العناية به  
حتى ردا اليه بعض قوته واصبح يستطيع السفر فازمعا على الرحيل والعودة الى منف . وفيما هم  
عائدون بسط اوريون لصديقه حقيقة حاله واطلمه على حبه لباولين ناسباً جميع ما فيه من  
الحامد الى حسن ظنهما به وشدة تأثيرها فيه الى ان قال ولا اراني احب دوراً كما تحبني فاذا  
تزوجت فباولين زوجتي لا سراها والذي يسوهني ان ثروتي تغل يدي عن العمل وبودي لو  
استطيع التخلص منها اذا كنت اتجر بما منحني الله من المواهب فاكسب ثقة الناس  
واحترامهم باعالي لا بمقامي وجاهي ومالي . فوقع كلامه في نفس صديقه وقماً حسناً لكنه اسف  
غلية امل نيته وقال في نفسه سمعود ادراجنا الى القسطنطينية ومعنا اثنان في مقبل العمر

يجب علينا تعزيتهما والنتابة بهما هذا الذي كان اسيراً تيساً وتلك التي برحها الوجد والميام  
ولما دخلوا الخان وجلسوا الى الطعام واحاط الفرسان بأوريون احاطة السوار بالمعصم لثلاً  
يفلت من ايديهم اقبل عليهم فيليس الطيب فانه كان يقصد جده لمداداة ابن هاشم كما تقدم  
ففي اليوم امر اوريون فشق عليه الخبر وساءه ان يتلى هذا الفتي بالمصايب فاستاذن القائد  
وجلس بجانب اوريون فحدثه بما كان من احتلال الجند القصر فغضب اوريون وعزم على التظلم  
الى عمرو ثم نعى الطيب اليه امه فاخذ الحزن منه كل مأخذ واغمي عليه واسرع اليه من حضر  
وعالجوه حتى افاق وهو ينوح ويبكي من غواد محروق فرق الجميع لمصايب لا سيما العرب لما  
اعتادوه من اكرام الوالدات فاتبعد الجند عنه احتراماً واغتم الطيب تلك الفرصة فأخبر  
اوريون بفرار الراهبات ونجاينهم وموت روفينس ولم يكن يعلم بمحرق القصر ومجن باولين فلم  
ينبئه بهما

وبعد ان استراحوا ساعة نهضوا الى خيلهم فركبوها واستأنفوا المسير الى القسطنطينية  
واوريون كالذاهل لا يبني على شيء وبدت جميع مصايبه هينة في جنب خسارة والدته فلم يعد  
يكثر من المنزلة اعاده العرب اليه ام غنومه ونسي ما يتهدد حياته من الخطر والعقاب وكان  
قلبه لا يسع سوى ذكرى امه والحزن على موتها بعيدة عنه وفيما هم في بعض الطريق طلع عليهم  
تفر من جند القسطنطينية جاؤا للملاقاهم فانبأهم بخبر الحريق فدنا الترجمان من اوريون وترجم له  
الخبر وقال لا تزال النار تعمل في المدينة فزادت لوعته واحسن ان جبالاً هوى عليه فصحفة  
فاخذ يتدب سوء حظهم ويبكي منزل آباءه واجدادهم ومباهة مجدم ونفرهم وعز عليه ان يخسر  
اباه وامه ويبت بدون ماوى طريداً اسيراً لا منزل له ولا سقف يظلمه كأنه في سفينة  
ضاعت دفنها فعبثت بها الريح والامواج واصبح رايها عرشة للفرق فقال في نفسه لذنب ما  
يقترن مني الله فهل اقترفت هذا الذنب او اخطأ اسلافي في عيني فاقوع بي وانتم لتدوهم  
مني وشاء ان يبني هذا البيت فكنت الفرع الاخير فيه ثم عاودته شجاعته فقال ولكن على المرء  
ان يسعى الى الخير جهده وسأظل سائراً في السيل الذي اختطته لنسي فلا اخشى عدواً  
ولا ارهيب شرّاً والامر لله ثم ذكر باولين فهزه الشوق اليها وتمنى لو يستطيع لقاءها فيضما  
اليه قبل مفارقة الحياة

ولما بلغوا القسطنطينية اخذوه الى بيت القاضي عثمان وكان ساعتئذ في مجلس عبادة  
للنظر في امر منف ولم يخف على عبادة ما كان الباقون يضمرون له من العدوان لا سيما  
القاضي وخالد امين يت اللال فهذان لم يكتماه ما كان يتناج فواديهما من سوء الظن به

فرق القاضي وقال لقد جرت يا عبادة واسرفت فعانية عملاك تعود عليك ونحن جميعاً براء بما فعلت فلا ناقة لنا ولا جمل في هذا الامر. فاجاب عبادة وقال فعلت ما فعلت واني المشول عن عملي وقد امرت باعداد الملاحي للدين باتوا بدون مأوى ويشق علي ان تروا رأيكم هذا في بعد ان ابلت البلاء الحسن فالتيت بنفسي في المهالك سعي في انقاذ المدينة فافعلوا ما يروق في اعينكم . وبعد الاخذ والرد اقرتوا علي تاجيل الحكم في الامر الي ان يوافيهم كتاب الخليفة من المدينة ردًا علي شكواهم التي رفرمها اليه . ثم نهض الجميع وانصرفوا وتركوا عبادة يحرق الارم ويقول في نفسه سأزيم السكنية الي ان تقع الضربة القاضية في المدينة ... وحينئذ دخل عليه رسول غياه واباه بأمر اوريون وعودة النرسان وقال لقد اخذوه الي بيت القاضي فصاح عبادة مغضباً وعلام لم يأتوا بي الي بيتي واني عامل الخليفة في هذه الديار فرمهم يخرجوه من بيت القاضي ثم قام الي بيتي وجلس ينتظر مجيئهم لكنه لم يلبث طويلاً حتى وافاه احد رجال القاضي فقال امرني القاضي ان اقرتك سلامه وافول ان الخليفة اقامه قاضياً علي مصر وخوله حق النظر في هذه الامور فاذا شئت ان ترى الاسير فني يشو او في سجين منف حيث يكون محبب . فوقع هذا الكلام من نفس عبادة اسوأ وقع فهب من مكانه واسرع الي بيت القاضي فلقى من عثمان سكينه وثباتاً اعمدا ما تار من غيظه وحده فاختد يعيد علي مسمو التهم الموجهة الي اوريون فقال القاضي سمعتها كلها وسينال الجاني عقاب ما جنت يده فاذا كان اوريون انزلت به القصاص ولو مكراً فقد عرفت اباه من قبله خير معرفة فرايت منه رجلاً فاضلاً كاملاً . فأصر عبادة علي ازالة العقاب بأوريون حالاً وأصر القاضي علي محاكته حتى يتضح ذنبه فاذا ثبتت جرمته عوقب والا اطلقوا سراحه . فاخذ عبادة بصبح والقاضي ساكت لا ينس بينت شفة وكانما هو جبل لا يتزعزع فلما فرغ عبادة قال القاضي

— لم يسمع بعد في الاسلام ان رجلاً كاوريون خدم الاسلام والمسلمين تنزع املاكه لجرد شبهة عزيت اليه فاذا فعلت كما نقول فابن عدل الاسلام . فقال عبادة ولكن البطريرك اتهم اوريون بذنوب اقترقها ولم تنزع املاكه منه بعد وانما ضبطنا امواله ووضعناها في مكان حريز حرصاً عليها من الضياع وفضلاً عن ذلك فييدي لوح مكتوب بخط اوريون يثبت جرمته واشتراك خطيته باولين في الجناية وقد امرت بحبسها وساتولي استنطاقها بنفسي وكأنك نيت او تناسيت اننا نفر قليل في هذه البلاد فاذا تجرأ احد الاهالي علي قتل جنودنا كما فعل ابن المقوقس فاني لنا بيناواتهم ودفنهم عنا اذا انتفضوا علينا وحاولوا سفك دماثنا

فقال القاضي لست اشد مني اهماً بماقبة الجاني لكني لا آذن بمقايه قبل ان التحقق

جنايته وأنه الفاعل فإذا اردت استنتاج باولين فافعل اما الحاكمة فلن يتولاها غيري ولا اتنازل عنها لاحد فلم ير عبادة بدأ من موافقتي

### الفصل الاربعون

وبعد ظهر ذلك اليوم امتطى عبادة جواده وسار الى سجين منف واما وصل الى المدينة سأل عن المطران فقيل له انه مات مطعوناً في الصباح فساءه هذا النبأ اذ كان يتوقع منه ان يكون شاهداً على ما ارتكبه اوريون وباولين في تسهيلهما سبيل فرار الراهبات واما دخل السجن امر الحراس فاتوه بياولين وكان يعرف اباهما وقد شهد بنفسه قتاله وبلاءه في الشام فلما رأى الفتاة اخذ يحرضها على الاعتراف بجريمة اوريون ويعربها بالعود الطائفة ليخفف كلامها حجة عليهما كليهما وتهديدها بالقتل اذا كتمت ما تعرفه اما باولين فقابلت وعوده بالاعراض وتهديده بالاستخفاف وامرته على السكوت فلما آس منها الاباء عمد الى الوعيد لفظاً وايماء وهو يحسب انه يخيفها فيجعلها على الاقرار واخيراً قال لها لا ينفعك هذا الصمت فنصدي كتابة ثبتت جريمتكما فاجابت قد يكون ذلك كما تقول لكني لا اصدق حتى ارى اللوح الذي تشير اليه وانتمهم عزاه قال سترينه قريباً يوم نقضين في مجلس القضاء

ولم يكن عبادة يجادل ان بين النساء من تضارع الابطال الشداد في اليأس والصبر والبسالة وقد رأى نساء قوميه يخرجن الى الجهاد غير خائفات الموت ولا مكترحات للجراح لكن جميع هؤلاء كن زوجات وامهات يرزن الى ساحة القتال حباً بزوج او ابن مدفوعات بعاطفة الدفاع عن اقرب الناس واعزهن اليهن واما الجوارى فلا يبرحن الخباء فلما شهد من باولين ثباتها الغريب وعدم مبالاتها بوعيدة وقلة اكرامها للموت اخذ العجب منه كل ماخذ فامر الترجمان ان يخبرها ان لا لمل لها بالخلاص وان الموت عقابها فعلت وجبها الصفرة لكنها لم تبد اضطراباً ولا جزعاً فعادت الى غرفتها حيث كانت المرضع بانتظارها ولما كانت شديدة الثقة ببراءتها القت اكلها على الله وعلى ما كانت تعرفه وتسمعه من عدل قضاة المسلمين لكنها خشيت ان يكون لعبادة رأي في الحكم عليها فاستحوذ عليها القلق وجلت تترك يديها ولم تكن تخشى الموت وانما شق عليها الموت قبل ان ترى اباهما وقبل ان تبرهن لاوريون على اخلاصها في حبه وشدة تعلقها به

وعاد عبادة فركب جواده وسار في شوارع منف حتى وصل الى حيث مجلس المدينة فالتى حوله جهوراً غنياً من الشعب فذكر جواده واخترق صفوفهم ولم يقف لیسأل عن علة اجتماعهم بل ظل سائراً في طريقه حتى بلغ الجسر فعب النهر عليه الى الفساطح

اما اهل متف فاحاطوا بالجلس وهم يصرخون ويطلبون من مشيري المدينة العون والاسعاف  
 في ضيقهم وكان المجلس ملثماً وقد اقل اعضاؤه الابواب الخاسية واقاموا الحراس على  
 المدخل خشية ان يهاجمهم الشعب فجلسوا حيارى لا يدرون ما يفعلون واخيراً اطل الرئيس  
 على الجمهور وقال ان ما تطلبونه منا ليس في طاقة البشر القيام به انتطيع ان تزيد الفيضان  
 او في وسعنا تخفيف ويلات الوباء وهل لنا ان نمنع فساد الاثمار. فاجاب الشعب بصوت واحد  
 نعم انكم تستطيعون فقد وليتم احكام المدينة على شرط ان تحينوا حكومتها. ثم اخذوا يرشقون  
 الحجارة فتساقط من السقف المتروح على الاعضاء حتى اضطر هولاء الى التخلي عن كراسي العاج  
 وهرعوا الى ما وراء الاعمدة والتماثيل ليتقوها وثلاً لم يلق الشعب مجيباً عمدوا الى الابواب  
 فاخذوا يقرعونها بايديهم ليقفوها فاستولى الخوف على من في المجلس وحسبوا ان الساعة قد  
 اقتربت وبنته هدأت الجلبة وكف الشعب عن الصياح ثم علت اصوات الهتاف والفرح وسموا  
 الجمهور بصيح قائلاً اهلاً وسهلاً بالشيخ الحكيم اعنا ايها الاب الصالح فعندك كنوز حكمة  
 القدماء فادخل المجلس ودل هولاء المترين نساء القلوب على السبيل المؤدي الى الخير. فتاق  
 رئيس المجلس الى معرفة ذلك الحكيم ورؤيته فساقي سلكاً واشرف على الجمهور من نافذة عالية  
 فرأى شيخاً وقوراً متردياً ثياباً بيضاء لامعة على حمار فارم وامامه نفر من حرس المدينة يحملون  
 الفؤوس وقد شدوا اليها سعف الخيل علامة الترحيب وفي يد الشيخ طروس صفره قديمة العهد  
 فصاح الرئيس لقد جاء ثم اسرع فنزل وامر بفتح الابواب فدخل ابولون وحده واقفلت  
 الابواب ولما صار في وسطهم دعاه الرئيس الى الجلوس في مجلسه فعمل كمن يحسب ذلك واجباً  
 عليهم وحققاً من حقوقه ولما استراح خاطب المجلس فقال اراني اقصر من ان اقوم بما ضاق به  
 حضرات المشيرين ذرعاً ولكني رجل قضيت العمر في درس حكمة القدماء وقد جئكم اليوم  
 لاطلعكم على ما كانوا يفعلونه في مثل هذه الاحوال عما كنتقدون بهم فتهتدوا بهداهم وتنقدوا  
 البلاد. ان الوباء فاش في المدينة وقد مرت اليوم بالجزء الذي اجترق فلقبت نحواً من خمسين  
 مريضاً مطروحين في الشارع فاذا عملتم على ايواء اولئك المساكين برهنتم لاهل المدينة على  
 حكمتكم واخلاصكم واهتمامكم بامرهم. فاقترح احد الاعضاء ان ينقلوا الى دير القديسة سييليا  
 وقال اخريل نضمهم في المكان الفلاني فاجاب ابولون وقال لا يحسن ان يبنى هولاء المرضى  
 بين الاصحاء فوجودهم في المدينة يعرض ساكنيها للرض ولهذا الضخراء الجاورة فائدة لا تزالون  
 تجهلونها فالرأي عندي ان يعزل المصابون فيها. فقال الرئيس ولكننا لا نستطيع ان نتركهم  
 عرضة للشمس المحرقة وقال آخر وليس في طاقتنا ان يبنى بيوتاً لهم فيها فقال ابولون ومن يقول

بهذين القولين ان في متف شيئاً كثيراً من الكتان والاعمدة فلتنصب خيام كبيرة ينقل اليها  
المصابون وليتول نصيباً لجنة منكم وعندكم عدد كبير من النوية الذين لا عمل لهم فاذا  
استأجرتهم نصبوا الخيام في يوم واحد. فاستحسن الجميع هذا الرأي واقروا عليه وكان بينهم بعض  
تجار الكتان فعرضوا ان يقدموا ما يلزم للخيام من هذا السيج فخرج الرئيس الى الشرفة واعلن  
قراره للشعب فتلقوا الخبر باصوات الابهاج والحبور وفي ذلك اليوم نصبت خيمة كبيرة بقرب  
المدائن ونقل اليها عدد كبير من المرضى وبعد ان فرغ ابولون من النظر في امور متفرقة اخذ  
يبحث في حاجة البلاد الكبرى ملتزمًا جانب الحذر فقال ان فيضان هذا العام من اردو  
الفيضانات ومن يتأمل حوادث الشهر الفائت يعلم ان الآلهة ارادت الانتقام منا فارسلت  
المذنب نذير السوء وبشر الخراب علامة على غضبها ولا يخفى عليكم ان تحمين الفيضان ليس  
في طاقة البشر على ان القدماء كانوا اعلم منا بالنواميس التي يجري عليها هذا الكون فكانوا اذا  
قصر النيل عن الوفاء يقدمون له ضحية تيسة نعم ان الطبيعة البشرية تنفر من تقديم هذه الضحايا  
وأنا اول من يستنكف من تقديمها لكنها الوسيلة الوحيدة التي تؤدي الى الغرض المطلوب فلا بد  
منها وهآكم الدليل قال ذلك مشيراً الى طروسيد . فسكت الاعضاء كأن على رؤوسهم الطير ثم  
قال واحد وما هي الضحية يا ترى وقال آخر وهل نستطيع ان نجد لها في متف فاجاب ابولون  
وقال عنوا اذا طلبت تأجيل الرد على استنكفكم الى فرصة اخرى فلا فائدة من وقوفكم عليه اليوم  
قبل ان اتحقق بنفسى اية الضحايا ترضى الآلهة . فصاح الجميع بصوت واحد بمقتك قل ولا نخفنا  
على مثل جمر الفضا فاني ان يجيبهم الى طلبهم وقال متى حان الزمان دعوتكم الى الاجتماع وبحث  
لكم بما اعرفه من هذا القبيل ثم طلب الى الرئيس ان يعلن نتيجة مفاوضاتهم للشعب فلما فعل هذا  
هتف السامون وتلقوا البشارة بفرح عظيم واحسن اعضاء المجلس ان حملاً ثقيلاً ارجع عنهم  
ولما خرج ابولون من المجلس لقيه الشعب بالترحاب واصوات المتاف والاكرام فحملوه وهم  
يترفون بمدحهم كأنه ازال عنهم المنكروه فانقذهم من شدتهم وبدل ضيقهم بالفرح . ولما خلا بنفسه  
اخذ يتأمل ما فعل فلم انه اتخذ على نفسه عملاً قد يؤول الى سقوطه لكنه لم يبال بل قال  
ان خلاص فيليس من تلك الساحرة له عندى المقام الاول ولو كان في خلاصه هلاكى . وفي  
طريقه عرج على بيت روفينس فاخبرته النساء بما كان من القبض على باولين فارتاح الى هذا  
النبا لكنه عاد فقال وهب انهم اطلقوا سراحها فانها تظل حجرة عثرة في سبيلنا فلست بمحائل عن  
عزمي حتى القيها في مهلك واستريح منها فاذا قضى عليها العرب بالموت سهلوا على القيام بعملى  
وصالنى عبادة فاجتهد في اقتناعه ليصادق على ما دبرت لها ( ستأتي البقية )